مرسلوت مع الربح

أُســـامة

للأســـتاذ إسماعيل مظهر

وأقبل الشيخ عُمران ذات صباح يجرّ رجليه جرًّا فيثير عجاجةً من تراب الثرى ، فبادرنى بالتحية ، ثم ارتمى على المصطبة كأنما ينفض عن كاهله حملاً ثقيلاً ينوء به . وكان فى عينيه حزن عميق ، رغم ابتسامة افترّ عنها ثغره ، ولكنها كانت تعبر عن حزن أعمق من ذلك الذى لاح فى نظراته وشاع فى تقاسيم وجهه . وكثيراً ما يكون الابتسام عن حزن دفين ، تجمد معه العين ولكن القلب فى بكاء . ثم أطرق ومضى يحرك أصابعه المزيلة فوق حبات مسبحته الكبيرة ، ويتمتم بكلمات غير بيّنة كأنه يناجي نفسه بالمعانى التى كانت تجيش فى صدره

— كيف بى لا أرى الدنيا كما كنت أراها منذ أيام ؟ لقد تغيّرت فيها كل شىء وانقلب فيها كل مَعنَى ! فالوجوه التى أراها ليست هى الوجوه التى كنت أعرفها ؛ والكلمات التى تطرق سمعى لا تؤدى فى نفسى ذات المعانى التى كانت تؤديها من قبل ؛ والزمان والعمر والحياة ! تلك التى مضت تغمرنى بالأمل وتشيع فى نفسى معانى الحسن وأفانين الجمال ، كيف حالت تلك الألوان الزاهية النَضِرة ؟ وكيف انتهى الأمل ومات الحُسن وذهب الجمال ؟ فى لحظة واحدة ماتت الدنيا فى نفسى بكل ما غرست فىّ من المعانى الأولى ! والناس والمجتمع ونظام العيش ! كيف أصبح الناس فى عينى كأنهم القُرود الزُّعر يهيمون فى أودية الأحلام ! وكيف بالمجتمع وقد انقلبت نظرتي فيه ، فإذا به موكب من الناس ليس فيه إلا التزوير على الطبيعة ، والتدليس على الفضائل . وكيف بنظام المعايشة وقد بانت لى فى لحظة واحدة خفاياه ، فإذا به الكفران بكل ما كنت أتخيل من المعانى التى لا تزدهر الحياة إلا بها

وكان يتكلم وناظراه إلى السماء ، كأنه يأنف أن يخاطب أهل الأرض . كنت تظن أنه يناجي أشباحاً وخيالات تراءت له فى الأفق البعيد، أو أنه يقرأ هذه المعانى من كتاب صفحاته السماء

كان قد مضى بضعة أسابيع والشيخ عمران بعيد عن ندوتنا الريفية ، فلم نسأل عنه ولم نبحث وراءه . لأن هذا الشيخ المحنك له وقفات عن الاتصال بالناس ، وغيبات قد تطول وقد تقصر ، يخلو فيها بنفسه ، بعيداً عن جلبة القرية ، فيظل أياماً أو أسابيع يخرج من بيته مع الغراب ، ويأوى إليه بعد أن يموت أهل القرية تلك الميتة الصغرى . وكنا نحترم فى هذا الشيخ الوقور نزعته تلك ، فلا نحاول أن نقطع عليه خيط أحلامه . رأيته مقبلاً ، فتوقّعت أن أرى تلك الابتسامة الفلسفية التى عوّدت أن أراها مرتسمة على شفتيه ، وذلك البريق الواضح الذى ينبعث من عينيه . ولكن الابتسامة كانت عن حزن ، وذلك البريق عن ريبة من أمر الدنيا . ولكن ما وراء ذلك ؟

هذا شيخ قد رمته الدنيا بأرزائها ، فسلبت منه الثراء وسلبت مع الثراء هدوء النفس ، فثار على الدنيا وعلى أهل الدنيا ، وعلى أهل اليسار منهم خاصة . فإذا كلمك فيهم ، فإنما أنت تسمع لزعيم من زعماء الاشتراكية ، أو لصعلوك متطرف من صعاليك الدولية الثالثة

« الأنساب » و « أرقام الحساب » : فنقول فى الأنساب مثلاً : جاء الشيخ محمدْ بنْ يوسفْ بنْ خالدْ بنْ عبد الله ، هكذا من دون إعراب . ونقرأ أرقام الحساب ، فنقول غير ملومين : سافر فلان إلى أوربا سنةَ ألفْ وثلاثمائةْ وثلاثْ عشرةْ مثلاً . على أن بعض علماء العربية رخّص فى تسكين الأعداد وحدها .

ثم إن الشيخ الإسكندرى رحمه الله حوقل وتعوذ إلى الله من هذا المصير ، وتمنى ألا يعيش إلى ذلك الزمن الذى تفقد فيه اللغة حليتها . وتتعرّى من أعلاق زينتها

حقاً إن تعوّذ المرحوم الإسكندرى من هذا المصير للغة فى محله ، لأن التفريط بحركات الإعراب تفريط بها نفسها وإضاعة لمزية من أكبر مزاياها . وهو فوق ذلك يحدث بلبلةً فى تفهم آيات القرآن ونشر تعاليمه بين الناطقين بالضاد إن بقيت الضاد ضاداً . ونحن نشاركه فى الحوقلة والتعوّذ . ونسأل الله أن يصون لغتنا ، وأن يُبقى مجمعنا « مجمع فؤاد الأول » حارساً لها ، عاملاً على سلامتها ، فى كنف المليك المعظم فاروق الأول ، كما نضرع إليه سبحانه أن يجعل القرآنَ تعويذةً لجلالته من صروف الزمانْ ، ويزيده توفيقاً فى ما يروم من إسعاد العرب ، وجمع شملهم وتوحيد كلمتهم ، إنه سميع مجيب .

عبد القادر المغربي
عضو مجمع فؤاد الأول

ورابني منه أن يبادرنا بتلك الكلمات بعد تحية قصيرة من يديه المُرْعَشتين ، فتوقعت أن داهية أخرى حلت بذلك الشيخ . لعله فقد البقية من ماله ، أو اعتدى عليه أحد الفاليك ، أو اغتصبه سرى من السَّراة شيئاً من طينه القليل . غير أن ذلك كله لم يكن شيئاً جديداً عليه ، وتعابير الحزن الشائعة في ملامحه كانت ولا شك تنم عن سبب أعمق من جميع هذه الأسباب ، وأمعن في الإيلام ، وأعمل في تحريك هواجس النفس

— ما وراءك يا شيخ ؟ لقد طالت غيبتك ، ولم نشأ أن نعكر عليك صفو تأملاتك التي تسعد بها في حقلك إلى جانب ساقيتك وأشجارك ؛ فكيف أنت وكيف أولادك ؟

وكأن السؤال عن أولاده قد حرك جميع أوتار نفسه ، فتطلع نحو السماء وقال : « حمداً لك يا رب ! » ، ولكن دمعتان أطلتا من حدقتيه ، فدل بريقهما على كارثة لم يألفها عمران وقد حطمته السنون

— أولادي كما تعهدهم ، لم يحدث بهم حدث غير مألوف في هذه الحياة . شاءت الطبيعة أن تستأثر بواحد منهم ، فانتزعت من قلبي في يوم وليلة أسامة الصغير ، فقمت نحوه بالواجب الذي يقوم به الأحياء للموتى في العادة ، وأسلمته للتراب ، إلى سفر اللانهاية ، إلى القرون ثم القرون تتوالى عليه في حفرته تلك ، في ظلام الأرض ، وراء تلك الحجارة الباردة المرطوبة ؛ بل وراء الأبد والأزل ، وراء السعادات والشقاوات ، وراء الأحقاد والضغائن ، وراء الآلام والأحزان ، وراء الجهالات والحفائظ ، بل وراء كل شيء ، حتى وراء الأقدار . ثم ودعته بقلبي لا بشفتيَّ ، وعدت أدراجي مشتت النفس خائر القوى مضطرب الوجدان ، أضرب في فلوات الوهم : أسائل نفسي ما الموت وما الحياة ؟ ولكن . نعم ولكن ...

ثم أمسك عن الكلام ، ودموعه تنهمر قطرات من الحزن والأسى البالغ العنيف

— ولكن ماذا ؟ لقد أثرت شجوني أيها الشيخ ، وحركت كوامن نفسي ، وأثرتَ في صدري ذكريات كانت نائمة

— ولكن . نعم ، ولكن ليست البلوى في الموت ، ولا المصيبة في ترك الدنيا . الداهية كل الداهية في الحياة

ومضى ينكث في الأرض بمخصرة كانت في يده ، ويرسم فوق الثرى رسوماً ، أشبه بتلك التي يرسمها الأطفال على رمال الشاطئ ، لا تلبث أن تمحوها الأمواج . ثم قال :

— ولأي شيء تثور شجونك وتتحرك لواعج نفسك ؟ إنما الشجن شجني ، والحزن حزني ، والبلوى بلواي ؛ والعزاء بالزمن ، والسلوى بالاستسلام للقضاء . فلست في حاجة لأن أسمع تلك الكلمات الجوف التي اعتاد الناس أن يُعَزُّوا بها عن المصيبة ، فإن إثمها أكبر من نفعها ، فتزويرها واضح لا يحتاج إلى دليل ، والتدليس فيها بيِّنٌ لا يعوزه البرهان . والناس هم الناس ، والدنيا هي الدنيا ، والأقدار تسيِّرنا في ليل معتم من الحوادث ، لا نستطيع أن نرجع إلى ما فات منه ، ولا أن نرسوَ فيه بأرض . لجٌّ مائج ، والسفينة تحملنا كرهاً ، فتسير رخاء حيناً ، وحيناً تلاطمها الأمواج

— إن هذه لفلسفة جديدة ، بعث الحزن معانيها في نفسك ، وأثار الشجن تفاصيلها في وعيك . فإني عهدتك على غير ما أنت ، صباراً غير يئوس ، جلداً غير متخاذل ، مرحاً عند الخطب قلَّ أو جلَّ

وكانت مخصرته ما تزال في حركتها ترسم في الثرى دوائر ومربعات ، وزوايا ومنحنيات ، ولوالب وإهليجات ، فكانت تلك الرقعة المتخاذلة المعاني ، المتداخلة الصور ، صفحة كاملة تقرأ فيها دخيلة نفسه ، وحركات وجدانه ، ولواعج قلبه . ومضت المخصرة ترسم ثم ترسم ، ومن ورائها لسانه يتحرك :

— كلا يا بني . هذه الفلسفة قديمة ، ولكن معرفتنا بها جديدة . تعلمنا إياها المصيبة إذا جلت ، والقارعة إذا نزلت . فمن فطن لها فطن للحياة ، ومن ضل عنها عاش العمر معتم البصيرة أعمى القلب . هذه الفلسفة يا بني قطعة من الحياة ذاتها ، فكيف تكون جديدة علينا ؟ وإنما تكون معرفتنا بها أدق ، ووقوفنا عليها أتم ، كلما كانت فوادحنا أعظم ، وكوارثنا آلأم وأشأم . إن كل مرائي الحياة ومجاليها ومناظرها ، أشياء إذا مضى عليها قليل من الزمن مرت على خواطرنا كالأحلام ، لا يبقى منها إلا الحقائق المريرة ؛ وكل الحقائق مرة أليمة ، والآلام أشد حقائق الحياة مرارة ؛ تبقى في النفس آثارها ، فإذا غيَّب الزمن بعضها

وعملت فيها دورة الليل والنهار حتى كادت تنضاف إلى وادي الأحلام ، فإنها بطبعها تكون أوضح أحلام الحياة ، وأشدها بياناً وأعمقها أثراً ، وأبقاها مع التذكر أطول الزمن . والحقيقة كالجبل السامق تتسلقه على درج من الألم والحزن والنصب ، وكلما صعّدت فيه زادت آلامك ، وتضاعفت أحزانك ، حتى إذا بلغت القمة أشرفت منها على محيط الدنيا ، فالسماء من فوقك تجوبها ذكاء بكل عظمتها ، والأرض بوديانها وشعابها وغاباتها منبسطة تحت قدميك ، ولكن الأسف كل الأسف أن الحقيقة طريقها الألم ، طريقها الحرمان ، طريقها الأحزان تمزق نياط القلب ، وتبدد قوى النفس وتهدّ من بناء العمر ... ما أجلّها وما أقساها

— أمّا الزمان ، فذلك المجهول الذي نعامله ، كما يقول فيلسوفنا المعاصر . هو ذلك التيار الهادىء المنحدر إلى لا نهاية . هو ذلك العقد النظيم من الحركة الدائمة . هو ذلك الكائن الموهوم الذي لا يشعر بوجودنا ولا يأبه بآلامنا . ونحن لجهلنا نعامل هذا الزمان ، نعتب على الزمان ، ونغضب من الزمان ، ونتبرم بالزمان . وما الزمان في مفهومنا العادي سوى الظرف الذي نعيش فيه . وما الظرف الذي نعيش فيه إلا تصرف القدر وتصرف ذلك الناس الذين نعايشهم . أما القدر فذلك الذي لا نعرف ، هو ذلك العالم الغيب . أما الناس فهم الناس ، أولئك الذين يعيش سوادهم دسيسة عليك في الحياة ، والدسيسة كما يقول شكسبير تجد حماها ومستقرها في شيئين : بشاشة الوجه ، ومعسول اللفظ . فقال :

فأمّا إن أردت رحّى أميناً ... فخلف بشاشة المتبسّمينا
وتحت اللفظ يقطر منك وداً ... هنالك تكمنين فتختفينا

— تنزل بك الكارثة ، وتحل بك القازعة ، فيواجهك الناس وعلى ألسنتهم تلك الألفاظ المحفوظة عن ظهر قلب ، تتحرك بها شفاههم ، ولا تعيها قلوبهم . وقد تفجع في مالك أو عرضك ، فتسمع منهم جملاً وقفت على ذلك الظرف . وقد يموت لك ولد كما مات ولدي ، فيعزونك بجمل أخرى نقشت على قلوب من حجارة . وهي جميعاً صلوات ودعوات بالرحمة وطلب الصبر . وإنما هي من الألسنة لا من القلوب والصلاة التي لا تصدر من القلب لن تجد إلى الله طريقاً . وإذا ضلّت الصلاة طريقها إلى الله فما جدواها ؟

— لقد مات ذلك الصغير ، ففي ذمة الأزل ، وفي ذمة اللانهاية ، وفي ذمة الزمان ينساب عليه انسياب الماء اللّين الهادىء إلى لا غاية . وما موته إلا أحد ظروف الزمان . وما أظلمنا إذ نعتب على الزمان وعلى ظروف الزمان . وإنما أعبّر بالزمان عن أولئك الذين كنت أتوقع أن أرى في أعينهم دمعة واحدة تترقرق على فراقه ؛ فإذا بهم ينظرون في وجهي بعيون جامدة النظرات ، وقد عقدت ألسنتهم حتى عن لوك تلك الجمل المحفوظة . وما آسف على شيء ، إلا أن ذلك الظرف قد حرك في نفسي تلك الأفعى الجبارة ، وكانت ما تزال لحسن حظي وسنانة نائمة : حرك الحقد والضغينة والقطيعة . كانت نفسي كالبركة الهادئة النائمة في أحضان طبيعة وادعة ، إذا مسّها النسيم تحركت أمواجها حركة لطيفة تمر بخاطري كحلم لذيذ ؛ فلما هبت عليها هذه العاصفة تعالت أمواجها وتلاطمت حتى كدُر ماؤها ، واحتمل زبداً رابياً تهدر من تحته براكين الألم فتزيد ثورتها عنفاً وشدة ، وذلك هو الأجر الذي ربحت بموت قطعة من نفسي : ألم القلب ، وقطيعة الناس ، وفراق الأبد !

أمنتك يا فراق وربّ يوم ... حذرت لو انه نفع الحذار
أخذت فلم تدع شيئاً عليه ... يخاف أسى ولا يرجى اصطبار
حبيب خنتني فيه ودار ... وللناس الأحبة والدّيار

— والعمر ما هو ؟ هو على التحقيق مقياس الزمن بين ساعة مولدك وساعة مصرعك ، ولكن الواقع الصحيح أن عمرك قد يطول وإن قصر مقياسه الزماني ، وقد يقصر وإن طال مقياسه ذاك . فليس العمر هو الأيام والسنون ، بل هو اللحظات والساعات ، تقيس عليها آلامك ومسراتك .

فإن طال ألمك فأنت قصير العمر وإن امتد زمنك ، وإن اتصلت مسراتك فأنت طويل العمر وإن قصرت أيامك . ولكن